البيئة الحاضنة

يُعرَّف الإرهاب بأنه فعل عنيف منظم وسري ومخطط وذو هدف محدد ذو طابع سياسي وجنائي معا، ترتكبه مجموعة أو حركة أو تنظيم، ويتم فيه استعمال القوة أو التهديد بها وإثارة الخوف والرهبة، وهو وسيلة للقتال العشوائي لا تحدها قيود إنسانية ولا يمكن التنبؤ بها، قد تكون تكتيكا أو استراتيجية، تتضمن الإكراه والابتزاز والحض على الإذعان، في ظل دعاية مدبرة. وضحايا الإرهاب قد يكونوا أبرياء من المدنيين غير المقاتلين أو المحايدين غير المنخرطين في عمليات القتال أو المواجهة المسلحة.

عند حدود هذا التعريف العلمي لا نبالغ إذا قلنا إن هناك أمرين يتعانقان:

١. إن الإرهاب قديم، كفعل وممارسة وطريقة للعنف المنظم المفرط، لكنه كاصطلاح متبلور على النحو المستقر في متون المعاجم والقواميس والموسوعات السياسية الحديثة، هو مسألة جديدة، ذاع صيتها في العقود الأخيرة.

٢. ليس الإرهاب فعلا لصيقا بدين أو مذهب أو ثقافة أو طبقة أو فكر معين، فكثير من الأديان والأيديولوجيات على مدار التاريخ قد أنتجت إرهابا وإرهابيين، ولغوا في الدم، وأفرطوا في التخريب والتدمير، وعاثوا في الأرض فسادا، متوهمين أنهم مصلحون، أو أبطال يقاومون الظلم والقهر أو ينصرون الدين والفكرة التي يعتقدون في طهريتها ووجاهتها.

لكن من أسف فإن الحلقة الأعلى صوتا من الإرهاب في تاريخ العالم المعاصر ملتصقة بحركات تتخذ من الإسلام أيديولوجية لها، تتوزع على أماكن ودول عديدة، وانتقلت في العقد الأخير من المحلية إلى العالمية، عابرة الحدود، ومتنقلة في القارات الست تحت راية «جهاد الطلب» ووفق شعارات منها مواجهة «القوى المعادية للإسلام» أو « إقامة الخلافة الإسلامية» أو قتال «العدو البعيد» و«العدو القريب».

وأنطلق هنا من أن الإرهاب هو النتيجة الأخيرة للتطرف الديني أو التدبير والتطبيق العنيف له. فالتطرف كتصور فكري وموقف نفسي يمكن أن يقف عند هذا الحد لدى بعض الأفراد، بينما يتطور عند آخرين ليصير إرهابا يقمع ويقتل ويدمر ويخرب ويعيث في الأرض فسادا.

ولم يكن من الممكن لهذه الجماعات والتنظيمات والتجمعات المتطرفة أن تقوم على هذا النحو الماثل أمامنا لولا المسار

الذي بدأته «جماعة الإخوان المسلمين» حين انتقلت من «الدعوة» إلى «السياسة» ثم من ممارسة السياسة علنا وبطريقة سلمية إلى تغليب السرية وانتهاج العنف، لاسيما مع تصاعد نفوذ «التنظيم الخاص» داخل الجماعة، والذي هيمن على كل شيء وارتكب من الجرائم والعمليات الإرهابية الكثير، ما حدا بمؤسس الجماعة حسن البنا نفسه إلى أن يقول عن عناصر هذا التنظيم: «ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين».

والتنظيم الخاص للإخوان لم ينزلق إلى العنف كفعل فقط، بل بدأت أفعاله المشينة تبحث عن سند لها من فكر وفقه وتأويل فاسد للنصين القرآني والنبوي، وبدأ هذا على استحياء، ثم شب عن الطوق واستغلظ على يد سيد قطب في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، لاسيما في كتبه «معالم في الطريق» و«هذا الدين» و«المستقبل لهذا الدين» ثم قراءته المغايرة للقرآن التي أطلق عليها «في ظلال القرآن» والتي انتصر فيها لأفكار «الحاكمية» و«الجهادية» و«الجاهلية»، وهي الأفكار التي أعيد إنتاجها في كثير مما كتبه أعضاء التنظيم الخاص للجماعة ومنهم مصطفى مشهور، الذي كانت كتيباته تقرأ على نطاق واسع في صفوف الجماعة بعد أن استعادها الرئيس أنور السادات وفتح أمامها الباب على مصراعيه في إطار خطته لمواجهة القوى اليسارية.

وبمرور الوقت تراجعت الأفكار التي تدعو إلى التدرج والسلمية في وصول الإخوان إلى السلطة، وسيطرت الأخرى النابتة من

«التسلف التكفيري» والتي تؤمن بالعمل السري والمواجهة العنيفة بدءا بالعنف الرمزي واللفظي وصولا إلى العنف المادي إذا لزم الأمر، أو جاءت اللحظة التي يشعر الإخوان فيها بالتمكن،ـ ويصبحوا قادرين على منازلة القوى الأخرى التي تنافسهم على الحكم، أو تلك الموجودة في الحكم أصلا.

و شهدت مصر خمس موجات إرهابية في ركاب جماعة الإخوان ومعهم وبهم وإلى جانبهم، نظرا لأن كل التجمعات والتنظيمات والجماعات والفرق السياسية التي اتخذت من الإسلام أيديولوجية لها قد خرجت من عباءتها. ويمكن تناول هذا في النقاط التالية:

١. **موجة الأربعينيات**: والتي كان من أبرز حوادثها اغتيال القاضي الخازندار بعد أن أصدر حكما ضد أعضاء بجماعة الإخوان، واغتيال رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي، والاعتداء على الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد بعد مقال وصف فيه أعضاء الجماعة بـ«الخوان» واتهمهم باعتناق الماسونية. وبعد حوادث عنف أخرى متفرقة انتهى الأمر باغتيال البنا في فبراير ١٩٤٩، وهناك من يمعن النظر فيما جرى بعد ثورة ٣٠ يونيو من حرائق، ويفكر في تهديدات الإخوان المستمرة بـ«حرق مصر» منذ انتهاء الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة الفائتة ويستنتج أن الإخوان ربما يكونوا هم من ارتكبوا حادث «حريق القاهرة» في يناير ١٩٥٢، وهي

مسألة تحتاج إلى مزيد من التفكير والتدقيق، وإن كان الاحتمال واردا.

٢. **موجة الخمسينيات والستينيات:** وقامت بها جماعة الإخوان في صراعها مع النظام السياسي الذي نشأ عقب ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث تحالف الإخوان معه في البداية وشجعوه على التخلص من الأحزاب السياسية، ثم اصطدموا به حين أرادوا أن يحولوا حركة الضباط الأحرار إلى مجرد عنصر دفع لمشروع الإخوان. وأبرز أحداث هذه الموجة هي محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في المنشية ١٩٥٤، وارتكاب اعمال عنف في ١٩٦٥ انتهت باعتقال خلية يقودها سيد قطب، حيث أعدم هو وبعض من معه. وقد كان مرشد الإخوان الحالي عضوا بهذه الخلية، وهناك اعترافات له بذلك.

٣. **موجة السبعينيات:** وقامت بها تجمعات متطرفة صغيرة مثل جماعة «الفنية العسكرية» التي خططت للانقلاب على الحكم، و«جماعة المسلمين» المعروفة باسم «التكفير والهجرة»، وجناح من «حزب التحرير الإسلامي»، وظهرت خلال هذا العقد الجماعة الإسلامية، واستخدمها السادات في التضييق على معارضيه اليساريين فروعوا طلاب الجامعات وأرهبوهم، وانتعش تنظيم الجهاد، وانتهت هذه الموجة باغتيال السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١، بعد أن انقلب السحر على الساحر.

obeikan.com

٤. **موجة الثمانينات والتسعينيات:** وكانت بالأساس من فعل «الجماعة الإسلامية» وبقايا تنظيم الجهاد، وقد بدأت عام ١٩٨٨ وتخللتها محاولة اغتيال رئيس الوزراء عاطف صدقي ووزراء وكتاب، وتم بالفعل اغتيال رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب والكاتب فرج فودة ومحاولة قتل نجيب محفوظ، وقتل مئات السياح والآلاف من المواطنين ورجال الشرطة في مواجهة بين الأمن والمتطرفين، وانتهت بحادث الأقصر ١٩٩٧، الذي بعده بدأت «الجماعة الإسلامية» تعرض مبادرة وقف العنف، والتي قبلتها الدولة وأخرجت قيادات الجماعة من السجون، ليرتد أغلبهم على المراجعات عقب ثورة يناير، ثم ينضمون إلى الإخوان في ممارسة العنف عقب ثورة ٣٠ يونيو.

٥. **الموجة الحالية:** بدأت أثناء حكم مرسي بقتل جنود في سيناء، ومحاصرة المحكمة الدستورية العليا ومدينة الإنتاج الإعلامي وحرق مقر حزب الوفد ومدخل البناية التي بها جريدة الوطن، واستمرت بعد إسقاطه بعمليات إرهابية متعاقبة نعيشها حاليا، تختلف عما جرى أنها الأكثر «عولمية» بمعنى مشاركة أفراد وتنظيمات من خارج مصر فيها، لا سيما في سيناء، وأكثر عنفا، لأنها عرفت أشكالا جديدة لم تكن متبعة من قبل مثل «العربات المفخخة»، وتسعى خلف هدف أكثر تحديدا بعد أن

ذاقت جماعة الإخوان طعم السلطة، وأصبح أفرادها أكثر تمردا، متخلين عن حذرهم التاريخي، وإيمانهم بـ «التقية» أو التحايل التكتيكي طويل النفس.

وظني أن هذه الموجة ستأخذ وقتا كسابقاتها، لكنها مثلها أيضا ستنتهي بأصحابها إلى فشل ذريع وخسران مبين، لاسيما أن الإرهابيين هذه المرة لا يواجهون السلطة أو الدولة بمفردها إنما يواجهون المجتمع أيضا، أو يقصدون السلطة بسوء في وقت يلتف أغلب الشعب حولها، ليس عن رضوخ أو تبعية وإلحاق كما يحاول الإخوان أن يصوروا إنما لشعور المصريين بالخطر على الدولة، خاصة في ظل متابعتهم لما يجري في سوريا والعراق واليمن وليبيا.

علاوة على هذا فإن موجة ما بعد إطاحة حكم الإخون لم تقف عند حد استهداف الشرطة والمسئولين السياسيين بل تمتد إلى الجيش الذي كان بعيد نسبيا عن الموجات السابقة، ولم يكن مطروحا كبنك أهداف للإرهابيين إلا نادرا. وهذا الأمر يصعب الأمر على الإرهابيين نظرا لما يتمتع به الجيش من منزلة في نفوس المصريين، خاصة أن قوامه الرئيسي من بين المجندين المدنيين من أبناء المصريين، عمال وفلاحين وموظفين وتجار ... الخ، وهذا يجعل، من دون شك، التنظيمات الإرهابية في مواجهة مع كافة المجتمع المصري، نظرا لأنه لا توجد أسرة ولا عائلة ليس لها مجند في الجيش أو ضابط أو صف ضابط وهكذا.

وهـذه مسألة تتخلـف في نظـر قطـاع مـن المصريـين عـن رؤيتهـم وتقييمهـم لحكـم رجـل عسـكري أو تدخـل المؤسسـة العسـكرية، كإدارة وحكـم، في تسـيير دفـة الأمـور بالدولـة.

وأيـام حكـم الإخـوان في مصـر أتيـح لبعـض المتطرفـين والإرهابيـين في مصـر الانضمـام إلى أمثالهـم ممـن يحملـون السـلاح ضـد نظام بشـار الأسـد في سـوريا، وهـؤلاء يشـكلون الآن جزءا من تنظيـم داعـش الـذي اسـتولى علـى أجـزاء شاسـعة مـن الأراضـي السـورية والعراقيـة وأقـام عليهـا مـا يسـميها «خلافـة إسـلامية».

وفي الحقيقـة فـإن معتنقـي الأفـكار الدينيـة المتطرفـة في مصـر، كمـا هـو في غيرهـا، طالمـا حلمـوا بالهجـرة و«الجهـاد» وشـكلوا نـواة لتنظيمـات ذات طابـع أممـي ومنهـا «القاعـدة». وإذا كان التنظيـم الدولـي لجماعـة «الإخـوان» جـزء مـن كيـان الجماعـة، الـتي ولـدت في ظـرف تاريخـي، جعلهـا تضـع نصـب عينيهـا منـذ البدايـة ضـرورة أن تعـبر القوميـات فـإن الحـركات الأكثـر راديكاليـة لم يكـن ضمـن أولوياتهـا لحظـة تشـكلها التحـرك خـارج حـدود الدولـة، وتكويـن «تنظيـم دولـي» مـا، بـل كانـت أهدافهـا محـددة في قضايـا محليـة أو داخليـة، ذروتهـا تغيـير نظـام الحكـم القائـم بالقـوة، باعتبـاره في نظرهـا «حكمـا كافـرا» أو «ظالمـا» و «فاسـقا» علـى أقـل تقديـر، لأنـه «لا يطبـق الشـريعة الإسـلامية»، بالصيغـة الـتي تـرى هـذه الجماعـات أنهـا تعـبر عـن «صحيـح الإسـلام».

ثم جاءت ظروف سياسية، نجمت أساسا عن صراع دولي خلال فترة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي المنهار والولايات المتحدة الأمريكية، جعلت هذه الجماعات تطل برأسها خارج الحدود المصرية. وبعدها تراكمت الأسباب التي جعلت من «الهجرة» مرحلة ضرورية تكتيكيا بالنسبة إليها. ومن هنا انفتح الباب على مصراعيه أمام «تعولم» الإسلاميين الراديكاليين في مصر.

والوصول إلى هذه المرحلة لم يتم عبر قفزة سريعة أخذت هؤلاء من التحرك محليا إلى منازلة أكبر دولة في عالمنا المعاصر، إذ إن الخروج من مصر لم يغير، طيلة ثلاثة عقود تقريبا، من تفكير قادة وأعضاء مختلف «الجماعات الإسلامية الراديكالية»، وهو التفكير الذي انصب بالدرجة الأولى على أن الهدف الرئيسي هو إسقاط نظام الحكم في مصر، بوصفه «العدو القريب»، وبعدها يمكن التفكير في مجابهة «العدو البعيد» وفي المقدمة الولايات المتحدة وإسرائيل. ومن هنا كانت «الهجرة» خارج مصر تستهدف تحقيق «التمكن» الذي لم يكن من المتاح الوصول إليه في مصر نفسها، نظرا ليقظة الأجهزة الأمنية وصرامة السلطة الحاكمة في التعامل مع أي جماعات خارجة على القانون، وبعد ذلك تأتي مرحلة «الفتح»، الذي يعني دخول أعضاء هذه الجماعات إلى مصر فاتحين على غرار الفتح الإسلامي الأول، الذي تم على يد عمرو بن العاص، في محاولة إعادة إنتاج حدث

تاريخي قديم بشكل تبسيطي لا يخلو من سذاجة كبيرة. وعلى هذا الأساس يمكننا فهم سر إطلاق تنظيم الجهاد على العناصر التي دفع بها إلى مصر في عقد التسعينيات من القرن الماضي لاغتيال بعض رموز السلطة السياسية وضرب السياحة اسم «طلائع الفتح».

لكن العوامل القديمة التي ساهمت في إيجاد مسألة «الهجرة» لم تلبث أن رشحت على هذا التفكير، وكان من الصعب أن ينسلخ الراديكاليون الإسلاميون المصريون تماما عن الأطراف التي ساهمت في تشكيل حركتهم إلى الخارج، وتحديدا إلى أفغانستان. ومن ثم ما إن خرجت القوات السوفيتية من هذا البلد ونشبت حرب أهلية بين فصائل «المجاهدين» حتى وجد هؤلاء المتطرفون، الذين انضووا تحت مسمى عريض هو «الأفغان العرب» أنفسهم موزعين على تكتيكات واستراتيجيات أطراف إقليمية ودولية، بعضها استخدم الهاربين من قيادات الجماعات المتطرفة أوراقا في يده يناور بها الحكومة المصرية، وفي مقدمة هذه الأطراف تأتي الولايات المتحدة، التي تردد أنها أجرت اتصالات مع قيادات من «الإخوان المسلمين» و «الجماعة الإسلامية»، إبان فترة العنف الأخيرة والعصيبة التي مرت بها مصر، وامتدت من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٧ . وبعض هذه الأطراف عول على هؤلاء في تحقيق أهداف بعيدة المدى تخص إقامة «أممية إسلامية»، مثل ما هو الحال بالنسبة للسودان طيلة عقد التسعينيات من القرن

المنصرم، أيام نفوذ «جبهة الإنقاذ الإسلامية» التي يتزعمها حسن الترابي.

بالإضافة إلى ذلك استفاد بعض الهاربين من بين أفراد «الجماعات الإسلامية» من قوانين اللجوء السياسي في دول أوروبا، وحصل كثيرون على فرص عمل في بلدان عربية خليجية وغير عربية، ووجد آخرون في بؤر الصراعات المسلحة، أو ما يطلق عليها «البؤر الملتهبة»، في البوسنة والهرسك، وكوسوفا، والشيشان، وكشمير، وطاجيكستان، والفلبين، مأوى بعد أن أوصدت مصر أبوابها أمامهم، إثر صدور أحكام غيابية عليهم تراوحت بين الإعدام والأشغال الشاقة، باعتبارهم ارتكبوا جرائم.

وهذه الأحوال أدت إلى توزع الإسلاميين الراديكاليين المصريين، الذين ينتمون إلى مختلف التنظيمات والجماعات المتطرفة، على دول عديدة تنتمي إلى القارات الست تقريبا. منتفعين من التعاون مع أجهزة استخبارات تارة، ووجود عناصر قادرة على تزوير الأوراق الثبوتية كافة، وتوافر جهات قادرة على التمويل دوما. وساهمت الطفرة الهائلة في وسائط الاتصالات في ربط هؤلاء جميعا بمراكز قيادة في الخارج، وعناصر قيادية داخل مصر نفسها، في حين ساهم التقدم الملموس الذي شهدته الأعمال المصرفية في إتاحة فرص كبيرة لتحويل الأموال وغسيلها، من أجل دعم عمليات إرهابية أو دفع مقابل لمتعاونين وأعضاء في هذه التنظيمات، أو الإنفاق

على أسرهم سواء في الداخل أو في الخارج. كما وفرت شبكة المعلومات الدولية «الإنترنت» وسيلة إعلامية رخيصة وسهلة أمام هذه التنظيمات لتصدر صحفها وبياناتها المتتالية.

وتحت راية القاعدة امتزجت أهداف المتطرفين المصريين، أو تناغمت، مع أهداف أبعد كانت تدور في رأس قيادات راديكالية من دول عربية وإسلامية أخرى، جعلت من الولايات المتحدة «العدو الأول»، لإجبارها على سحب جيشها وعتادها من منطقة الخليج العربي، وإخراجها من معادلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي. ولم يكن تحول من هذا النوع صعبا على الإطلاق، نظرا لأن

«الأفغان العرب» عموما، ليسوا سوى نتاجا لصراعات عالمية، أيديولوجية واستراتيجية، أكسبتهم خبرة عميقة نسبيا في التعامل مع قضايا تتعدى حدود أقطارهم، وغذت لديهم ميلا، تنامى باستمرار، إلى إيجاد «أممية إسلامية». وعبرت أدبيات الراديكاليين الإسلاميين وتصريحات قادتهم، اعتبارا من النصف الثاني من عقد التسعينيات من القرن الماضي، بوضوح وجلاء عن هذا التوجه الجديد، ثم جاءت تحركاتهم لتؤكد هذا، إذ إنها اخترقت حدود الدول القومية وساحت في عالم جغرافي تخيلي ينتهي عند نقاط التماس الملتهبة في العالم الإسلامي، ويعيد إنتاج التصورات الأكثر شمولية التي تحدثت عن دولة إسلامية تمتد من غانا إلى فرغانة.

obeikan.com

ومع ذلك فمن الصعوبة بمكان التسليم تماما بأن الطابع الأممي للجماعات المتطرفة في مصر صنيع السنوات الأخيرة، أو مرحلة ما بعد إسقاط حكم الإخوان، كما يتصور البعض، فهو يشكل جزءا من خطاب هذه الجماعات منذ زمن، تمحور حول ثلاث قضايا رئيسية، هي «الخلافة» و«الجهاد» و«العلاقة مع الغرب».

لكن على المستوى العملي قاد ترتيب الأولويات لدى هذه الحركات إلى جعل تغيير الوضع الداخلي قسرا هو القاعدة الأساسية للانطلاق إلى بناء أنماط عدة من التعاون مع الحركات المتطرفة في بلدان عربية وإسلامية أخرى لإسقاط الأنظمة الحاكمة، ومنها ما يتم في سوريا والعراق حاليا تحت راية داعش.

في هذا السياق تبدو العلاقة بين جماعة الإخوان والتنظيمات «الجهادية» التي انتهت في طورها الحالي إلى داعش، مركبة إلى حد كبير، فبينما كان الإخوان أصل كل هذا الجماعات من المنشأ، ثم عملت «الجماعة الأم» على توظيف المتشددين في خدمتها بطرق متعددة، فإن هؤلاء، ومنهم داعش، وإن توافقوا تكتيكا مع الإخوان إلا إنهم ينازعون الجماعة في تمثل الإسلام أو في حصد منافع مشروع الإسلام السياسي برمته.

فعلى سبيل المثال بث داعش «فيديو» ظهر فيه شخص يدعى «أبو صهيب الليبي» يقول فيه، ما باب الخبل والغرور،

إنهم إن تمكنوا من دخول مصر ـ لا قدر الله ـ سيبدأون بقتل الرئيس محمد مرسي واصفا إياه بـ «الطاغوت والمجرم الأكبر» وأنه «يتمسح بالدين ويتستر» وقال إن «العوام والغلابة كانوا يقولون إنه أكثر حافظ للقرآن، ويقيم الصلاة، لكنه مجرم، وقريباً نتقرب إلى الله بقتل المرتدين والطواغيت في مصر».

ومن يقرأ تاريخ الفرق والتنظيمات والجماعات والتجمعات والتشكيلات التي صارعت على السلطة والثروة منذ الفتنة الكبرى وحتى الآن لا يستغرب أبدا ما ردده أبو صهيب، وسيردده غيره من الدواعش ومن لف لقهم، أو أعجبه تفكيرهم المريض، وسلوكهم الدموي، الخارج عن الإسلام والمنحاز إلى شريعة هولاكو. فكثير من هذه التنظيمات والفرق كفر بعضه بعضا، فسفكت دماء ونهبت ثروات واستبيحت أعراض.

ففي الزمن الماضي كان الخوارج يقتلون المسلمين الموالين لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ويحمون المشركين ظنا منهم أن هذا تطبيق حرفي للآية القرآنية: «**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**»، وجاء في الأثر أن واصل ابن عطاء كان ماضيا ذات ليلة بالصحراء فاعترضته مجموعة من الخوارج، وسألوه: من أنت؟ فأجابهم «أنا مشرك مستجير» وأخفى عنهم أنه «مسلم» حتى لا يقتلونه، فما كان منهم إلا أن صانوا حياته واصطحبوه معززا مكرما حتى بلغ مكانا آمنا.

وفي زمننا هذا كفَّرت جماعة «الشوقيين» التي كانت نشطة في محافظة الفيوم أمير الجماعة الإسلامية عمر عبد الرحمن، المسجون في الولايات المتحدة الأمريكية حاليا، رغم أنه كان يزعم أن ما هو عليه وجماعته هو طريق الإسلام الصحيح، ويفرط معهم في تكفير أهل الحكم والكثير من عموم الناس. وقد وقعت صدامات كثيرة بين الطرفين، وكذلك بينهما وبين فصائل أخرى من المتشددين.

ووصل الأمر إلى أن أعضاء الجماعة الواحدة كان يكفر كل واحد منهم الآخر داخل السجون، ولا يصلي معه، بدعوى أن الصلاة لا تجوز خلفه ولا معه. ورأينا معركة شرسة بين عمر عبد الرحمن وعبود الزمر زعيم تنظيم الجهاد حول «إمارة الأسير» و«إمارة الضرير». والإخوان يطلبون في مشروع التمكين أن يكونوا هم الجماعة الوحيدة التي تمثل الإسلام في رأي الناس. ولهذا لم يتوقف الصراع المعلن حينا والمكتوم أحيانا بين الإخوان وبين جماعات دينية أخرى، وقد ظهر هذا بجلاء في الانتخابات البرلمانية التي أعقبت ثورة ٢٥ يناير حين كانت الجماعة تخوض صراعا جانبيا مع السلفيين إلى جانب منافستها وصراعها مع القوى السياسية المدنية.

والسلفيون من جانبهم كانوا يصارعون الإخوان على من ينفرد بـ«الدعوة»، فمنذ عقود حمل الإخوان ياسر برهامي رئيس الدعوة السلفية بالإسكندرية وألقوه خارج المسجد حتى لا يتمكن من الوعظ، وقبلها كانت الجماعة الإسلامية

تتهم الإخوان بالنفاق والمداهنة والملاينة، بينما كان الإخوان يرمونهم بالشطط والتهور. ورغم أن كثيرا من هذه الجماعات قد تقاربت وتحالفت بعد ثورة يناير في وجه التيار المدني، ومع أن كلها تنهل من معين واحد وأهدافها متطابقة وإن اختلفت الوسائل، فإن هذا لم ينه التناقضات بينها، وإيمان كل منها بأنها هي التي تمثل الإسلام وما خلاها باطل. ووصل الأمر إلى ذروته حين قام أعضاء جماعة «التوحيد والجهاد» بتكفير محمد مرسي أثناء محاكمتهم في قضية تفجيرات منشآت في جنوب سيناء، حيث هتفوا داخل قفص الاتهام: «مرسي كافر».

على منوال هؤلاء تفكر داعش، فما في رؤوسهم يقع في قلب التصور المريض الذي سبق أن عشش في أذهان جماعات وفرق شوهت تاريخ المسلمين وصورة الإسلام. ولهذا حين نسمع قيادي في داعش يقول إنهم إن دخلوا مصر فأول من سيقتلونه هو مرسي، لا نتعجب أبدا، ليبقى ما نتعجب له هو غرور الدواعش وخيالهم المريض الذي صور لهم أن بوسعهم أن يسيطروا على مصر.

وهناك أمر لا بد من التعرض له في هذا المقام، وهو تحول بعض شباب الإخوان في السجون، عقب إطاحة حكمهم إلى دواعش، رغبة في الانتقام من السلطة التي سجنتهم، ومن المجتمع الذي أسقط حكمهم.

فعلى سبيل المثال قامت والدة أحد شباب الإخوان المعتقلين بسجن العقرب بنشر فيديو لها على مواقع التواصل الاجتماعى وهى تعلن مبايعتها للبغدادى وتنظيم داعش على السمع والطاعة، وتؤكد أنها من ولاية القاهرة – حسب زعمها – وأنها لن تقبل العزاء فى ابنها إذا مات فى السجن أو تم إعدامها، وأن دولة البغدادى سوف تعيد حقها وتثأر لها.

ومع الموجات الخمس للإرهاب في مصر، التي سبقت الإشارة إليها، شهدت دول عربية أعمال إرهابية قامت بها مجموعات تميل إلى التصورات التي اعتقد فيها وتمسك بها التنظيم الخاص لجماعة الإخوان وكذلك الجماعات والتنظيمات التي تتوسل بالإسلام لحيازة السلطة، لعل أبرزها تلك التي شهدتها الجزائر في «عشرية دموية» اندلعت بعد تدخل الجيش للحيلولة دون وصول «جبهة الإنقاذ» للحكم، ليرفع الراديكاليون الإسلاميون السلاح في وجه السلطة والمجتمع، مستهدفين الجيش والشرطة والأحزاب المدنية وجموع الشعب بمن فيها الطبقات الفقيرة والمعدمة التي لا ناقة لها ولا جمل في الصراع على السلطة.

وخلال عشر سنوات من الحرب الضروس التي خاضها الجيش ضد الإرهابيين قُتل ما يربو على مائة ألف شخص، كثير منهم ذُبح كالخراف، ودمرت منشآت، وتعطلت مؤسسات، وحيكت مؤامرات، واستُنزفت أموال، وشاعت فوضى واضطرابات، وتقنن الإرهابيون في عملياتهم ما بين

تفجيرات في العاصمة ومدن أخرى، ومهاجمة القرى النائية وقتل أهلها لعقاب الجميع على الالتفاف حول الجيش أو لإحراج السلطة وإظهارها على أنها عاجزة عن حماية الشعب، وتفجير منشآت نفطية وخطوط نقل الغاز الطبيعي.

وتحطمت أهداف الإرهابيون أمام إصرار الجيش على استئصالهم ونفور المجتمع منهم وظهور انشقاقات بين صفوفهم وقيام جناح من الحركة الدينية المسيسة بالابتعاد عنهم بعد أن أدركت أن العنف لن يحقق لها مكاسب عاجلة أو آجلة. وحين جاء الرئيس عبد العزيز بوتفليقة طرح مبادرة لـ «المصالحة الوطنية» وتلكأت فصائل من «الإسلاميين» في قبولها ثم لم تلبث أن ارتضت بها، ورجعت تمارس السياسة بشكل علني ومن خلال مؤسسات الدولة وقوانينها وتشريعاتها. وظلت هناك جماعات إرهابية مصرة على رفع السلاح وانزلعت في الصحراء واعتنقت أفكار القاعدة وساهمت في إعلان ما يسمى «تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي».

والدولة العربية الثالثة التي شهدت موجات متلاحقة من الإرهاب هي اليمن، لاسيما بعد أن استعصمت عناصر تابعة للقاعدة أو متبنية لأفكارها أو ما يشبهها بالجبال الوعرة وبنت علاقات مع المحيط الاجتماعي القبلي الخارج عن سلطة الدولة أو المتحدي لها. ولم يقتصر استهداف «قاعدة اليمن» أهداف داخل الدولة، وهي مسألة تكررت كثيرا على مدار العقد الذي سبق اندلاع الثورة، بل طال أهدافا

خارجية مثل ضرب البارجة الأمريكية «كول» في مياه عدن خلال شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٠. وبالقطع سيجد المتطرفون في اليمن فرصة جديدة مع استمرار الصراع على الحكم وتدخل القوى الإقليمية في بلادهم إلى جانب استمرار العوامل التي أوجدت الإرهاب وتغذيه بلا توقف.

وفي سوريا تمكنت السلطة من إنهاء أي نفوذ للإخوان وغيرهم من أتباع «الإسلام السياسي» والسلفية الجهادية بعد المواجهة المسلحة في حمص وحماة سنة ١٩٨١ لكن هؤلاء ظلوا يعملون تحت الأرض في هدوء، وجاء الاحتلال الأمريكي للعراق ليجعل النظام في دمشق بحاجة إلى التعامل مع «السلفية الجهادية» لمقاومة الاحتلال لاسيما بعد أن هددت واشنطن بأن سوريا ستكون المحطة الثانية للقوات الغربية بعد العراق، ولذا نسقت دمشق مع بعض المجموعات الجهادية الراغبة في التسلل إلى الأراضي العراقية. وفور اندلاع الثورة ضد بشار الأسد أطلت السلفية الجهادية والإخوان برأسيهما فتحولت الثورة إلى حرب أهلية ثم صراع إقليمي أخذ في جانب منه صيغة مذهبية، وتطور الأمر إلى قيام مجموعة متطرفة باقتطاع جزء من البلاد لإقامة ما يسمى «الدولة الإسلامية في العراق والشام».

والأمر نفسه ينطبق على ليبيا حيث كان القذافي يواجه التطرف الديني بالحديد والنار، لكن هؤلاء تواجدوا صامتين ثم توافدوا من الخارج عقب اندلاع الثورة وانضم إليهم

متطرفون من جنسيات أخرى، لتصبح البلاد أرضا خصبة لجماعات إرهابية شتى في الوقت الراهن.

ولم تخل الدول العربية الأخرى من جماعات متطرفة رأيناها في العراق متمثلة في «التوحيد والجهاد» وفي الصومال هناك أكثر من جماعة حلت محل الدولة، وفي تونس نشهد توحشا للسلفية الدعوية والجهادية معا، وفي المغرب كذلك والسودان والأردن ولبنان، وكل هذه البلدان شهدت عمليات إرهابية متفرقة في العقدين الأخيرين، كما استُهدفت المملكة العربية السعودية في أكثر من حادث إرهابي منذ منتصف التسعينيات وحتى الآن، وكذلك الكويت، واكتشفت الإمارات أكثر من خلية إرهابية ومتطرفة على من الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وإلى الآن.

ولا أعتقد أن العالم العربي بوسعه أن يتخلص من الإرهاب ورواسبه في زمن وجيز وبلا ثمن، فالتجربة تقول إن تغييب الجوانب الفكرية والثقافية والتعليمية في المعركة ضد الإرهاب، وتقديم الأمني على ما عداه، واستمرر الاستبداد السياسي تحت حكم ظغمائيات وعسكرتاريات وشموليات، والإضعاف المنظم والمقصود للبدائل السياسية المدنية، لا يجفف ينابيع المجتمع أمام الإرهابيين لتجنيد عناصر جدد على مدار الأيام، تحت مزاعم مختلفة.

ومــع هــذاا فــإن ربــط الإرهــاب بالعــرب فقــط، أو قصــره عليهــم، لا يمــت إلى التفكـير العلمــي بصلــة، فأديــان ومذاهــب وثقافــات عديــدة عرفــت إنتــاج جمعــات وتنظيمــات تمــارس العنــف والإرهــاب، وإن كان اللبــس حــول هــذه المسألة منبعــه أن التنظيمـات الإرهابيـة الأكثـر صخبـا في العـالم الآن ترفـع الإسـلام شــعارا سياســيا لهــا، ونبتــت في حضــن البيئــة الاجتماعيــة العربيــة، الــتي تتزاحــم فيهــا الأســباب الــتي تــؤدي إلى تواجــد الإرهــاب وتغذيــه.